مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد السادس / العدد: الثاني
(جمادى الأولى 1444هـ/ ديسمبر 2022م)، ص 369– 392

إيديولوجية الوطن والمواطنة من خلال خطبة ونص البيعة للأمير عبد القادر الجزائري

Idéologie de la patrie et de la citoyenneté à travers un sermon et un texte d'allégeance du l'emir Abdelkader El Djezairi

[1] نورة سحنون Noura SAHNOUNE ، [2] فيتحة شفيري Fatiha CHEFIRI

[1] أمحمد بوقرة، بومرداس، مخبر تحليل الخطاب جامعة مولود معمري تيزي وزو

n.sahnoune@univ-boumerdes.dz

[2] أمحمد بوقرة، بومرداس مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري تيزي وزو

fatihachefiri@gmail.com

المؤلف المرسل: **نورة سحنون** **البريد الإلكتروني:** n.sahnoune@univ-boumerdes.dz

تاريخ الاستلام: 18 /2022/04 تاريخ القبول: 15 /2022/11

ملخص:

لم يرض الشعب الجزائري بالاحتلال الفرنسي بعد سقوط العاصمة و توقيع الداي لمعاهدة الاستسلام في 05 جويلية 1830م، بل ظهر بالوجه الرافض لهذه العملية و اعتبر أن سقوط العاصمة واستسلام الداي لا تمثل ما يشعر به الشعب من إذلال و نقص من الشخصية الجزائرية التي يتمتع بها الشعب الجزائري .فظهرت مقاومات ضد عملية الاحتلال أينما وطأت أرجل المستعمر. وما مقاومة الأمير عبد القادر إلا أنموذجا للوطنية التي كانت في نفوس اغلب الجزائريين .فهو زعيم وطني ثائر .ظهر بعد المبايعة و استلام قيادة المقاومة السياسية و العسكرية .

إنّ قدرات الشخصية للأمير عبد القادر مكنه من استمالة القبائل الجزائرية بالفكر الجهادي الثابت والراسخ في عمق النفسية الجزائرية، وبالبيعة كان ميلاد الدولة الجزائرية الحديثة، على مبدأ العدل والمساواة واحترام الحريات والكرامة الإنسانية، وسيادة القانون وحبّ الجهاد.

إنّنا لا نبالغ إن قلنا أنّ الجزائر لم تعرف عبر تاريخها الطويل قائداً من أبنائها وعبقرية رجل وقيادة فذّة في الحرب والسِّلم، فكان فارساً للحرب، وخطيباً وزعيماً لدولة وطنية، وحمل الجزائر من النظام القبلية التقليدية إلى نظام الدولة الحديثة بمزاوجة بين الأصالة والمعاصرة في بناء الدولة الجزائرية.

الكلمات المفتاحية: إيديولوجية، الوطن، المواطنة، البيعة، الأمير عبد القادر.

Résumé :

Le peuple algérien n'est pas resté inactif après l'occupation de 1830. La résistance de l'émir Abdelkader a été la résistance la plus importante après qu'il ait reçu les rênes du pouvoir de son père, le cheikh Muhyiddin. Quant à l'influence principale qui a montré l'émir comme un leader national et révolutionnaire.Les capacités personnelles de l'émir Abdel-Qader lui ont permis de gagner les tribus algériennes avec la pensée djihadiste ferme et enracinée dans la profondeur de la psyché algérienne, et avec le serment d'allégeance, c'est la naissance de l'État algérien moderne, sur le principe de justice, d'égalité, de respect des libertés et de la dignité humaine, de l'État de droit et de l'amour du djihad.Nous n'exagérons pas si nous disons que l'Algérie n'a pas connu tout au long de sa longue histoire un leader de ses fils, un homme de génie et un leadership hors pair dans la guerre et la paix de l'Etat algérien.. **Les mots clés** : Idéologie, patrie, citoyenneté, d'allégeance, Imir Abdelkader.

مقدمة:

الجدير بالذكر أن القبائل العربية و البربرية الجزائرية كانت تعيش حياة وطنية ،منذ قرون خلت ، ويظهر ذلك من خلال الطابع الجهادي الذي كانت عليه منذ الفترة العثمانية الأولى،التي اوجدت في الدعم العثماني حافزا لها.و ما جائت مقاومة الامير عبد القادر الا ان يستيقظ الضمير الجمعي للقبائل للتضامن و التآزر و التعاون في المصير المشترك الذي آلت إليه البلاد ،و كانت البيعة مظهرا لهذه الروح أن تستيقظ من جديد بزعامة و شخصية رجل اِستطاع أن يوقظ الحسّ الوطني لشعب ظلّ قرونا ينبذ نظام الحكم المقيّد بقوانين ليست محل التجديد و الانفتاح على نمط الدول الأوربية الحديثة ، حتى أنّ مفاهيم

مثل الدولة والوطن والحكومة لم تكن غريبة عليه، لكن الأمير عبد القادر هو الرجل الذي أخذ على عاتقه بفضل خصائصه العظيمة والظروف المناسبة أن يوحد أبناء وطنه في أمّة واحدة، وأن يوجّه أفكارهم السياسية وجهة أخرى، ويضع لهم بذرة السعادة والرفاهية والقوة من غير أن يقطع الصلة بالأوضاع القديمة والتقليدية السابقة بطريقة عنيفة. فإلى أي مدى استطاع الامير عبد القادر ان يجسد الروح الوطنية في الجزائر و يجعل المواطنة تسري في مخيال الفرد الجزائري يدافع عنها و يضحي من اجلها بالنفس و النفيس ؟

سنعالج مفهوم الوطن و المواطنة عند الامير عبد القادر من خلال وصف وتحليل نماذج من بلاغة خطبته .أن ترسيخ هذه المواطنة وترسيم معالمها وتوضيح أسسها .وكيف نجح في ذلك نجاحا شهدت له به سجلات التاريخ وسطور المؤرخين ومخطوطات المتاحف، خاصة أن المواطنة والهوية والانتماء تضطرب كثيرا في أوضاع التشتت القبلي وتضعف مع ويلات المستعمر الذي يحاول جاهدا طمس الهوية وزرع التشتت ومحاربة الدين والوطن واللغة بكل ما أتيح من قوة وتغطرس.

وقد أشادت الدراسات التاريخية واللغوية بقوة تأثير وحجية خطبة البيعة للأمير عبد القادر وهذا ما سنعالجه في هذه الورقة البحثية.

أولا: الأمير عبد القادر الجزائري حياته وثقافته:

1– أصله ونسبه:

يعود أصل الأمير وأسرته إلى الأدارسة الذين كانوا ملوكاً في المغرب الأقصى والأوسط والأندلس[1] ويعود جده الأول عبد القوي أو أجداده، واستقر بقلعة بني حماد قرب سطيف من الشرق الجزائر،[2] وذلك بعد نزوحه من المغرب الأقصى، وبعد أن لهبت نار الفتنة والحرب في مراكش. وقد اِشتهرت سلالة الأمير عبد القادر الجزائري وعائلته بالعلم والتقوى والورع وحب الجهاد في سبيل الله، وهذه المميزات جعلت مكانتهم الاِجتماعية مرموقة تحظى بالاِحترام من طرف الصغير والكبير.

وقد تمكنت أسرته أن تبسط نفوذها على القبائل النازلة في نواحي الغرب الجزائري المتاخمة للمغرب وخاصة في عهد السيد محي الدين والد الأمير عبد القادر المشهور بِعلمه وتقواه وشدت إليه الرحال من الضواحي والأمصار لتلقّي العلوم والأفكار، وقد جبل الله النفوس على محبته والقلوب على مودته. أمّا نسبه هو الأمير عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن محمد بن مختار بن عبد القادر بن أحمد المختار[3] وقد كان يكنى بأبي محمد، أمّا ألقابه فهي متعدّدة أطلقت عليه في المناسبات المختلفة منها: أمير المؤمنين، ناصر الدين، الأمير، الجزائري، اِبن الراشدي، اِبن خلاد.

2- مولده ونشأته:

كانت ولادة الأمير عبد القادر الجزائري ذات جمعة الموافق للثالث والعشرين من شهر رجب سنة اِثنين وعشرين ومائتين وألف للهجرة الموافق لِشهر مايو سنة سبعة وثمانمائة وألف الميلادية بقرية تسمى القيطنة غرب مدينة معسكر من إيالة وهران، ولما كان والد من حماة الشريعة ومن كبار أوليائها مما يدل على أنّ الأمير نشأ في بيت متشبّع بالدين والثقافة، وكان والده عالماً متصوّفاً، وقد أولى لِابنه عناية خاصة لدراسة علوم اللغة والفقه والتفسير، بعد أن ألحقه بمدرسته في القيطنة، حيث بلغ من عمره الرابعة، وبدأت ملكته العقلية تظهر لتدلّ على نبوغ مبكر، إذ كان يقرأ ويكتب وهو في الخامسة من عمره.

وقد بذل والده قصارى جهده في تثقيفه، لما أنس فيه من إمارات التفوّق والنبوغ والذكاء فتمكّن من اِكتساب جانب عظيم من العلم واِستطاع حفظ القرآن الكريم في سنّ مبكرة، ودرس الحديث وأصول الشريعة، كما تلقّى مبادئ الفقه وأصوله عن والده ومن غيره من العلماء الأجلّاء، حيث اِستطاع أن يرتّل القرآن الكريم وهو في الرابعة عشرة من عمره في مكانة حافظ، وأصبح كلام الله يجري على لسان على ظهر قلب في حلقات العلم وبين أساتذته، بعد أن تلقّى من العلوم العقلية والشرعية، على الكثير من أساتذة العلوم وفقهاء الشريعة، خاصةً والده، ذاك الفقيه الصوفي الكبير الذي أقرّى حيلته وأسّس فكره تأسيساً أصيلاً ولقّنه مناهج الاِقتناص والفكر والحكمة، معتمداً في تربيته على منهج صوفي وجداني، مكّنه من اِكتساب أساليب البحث والنظر، واستلهام الحقائق والمعارف.[4]

كما تلقّى العلم التاريخ والفلسفة، وتعلّم مبادئ شتّى العلوم اللغوية والشرعية، ونال درجة الطالب، وكلّف بتحفيظ القرآن للأطفال وإلقاء الدروس والتفسير في الزاوية، ومن أجل إتمام دراسته سافر عام 1821م إلى مدينة أرزيو الساحلية، وذلك على يد القاضي الشيخ أحمد بن الطاهر البطوي الذي كان مشهوراً بغزارة علمه وسعة اطلاعه، وبعدها رجل إلى مدينة وهران إلى مدرسة العالم الفقيه أحمد بن خوجة، صاحب رائعة در الأعيان في أخبار وهران حيث توسّعت معارفه اللغوية والفقهية والنحوية والبيانية، وكذلك الفلسفية والمنطق وصقل مواهبه الأدبية والفكرية، وكان دؤوباً على حضور حلقات العلم والعلماء في وهران، مثل حلقة الشيخ مصطفى الهاشمي، والشيخ بن نقريد، وقضى عامين كاملين في هذه الرحلة العلمية، ثمّ عاد إلى مسقط رأسه وتزوّج بِابنة عمّه الآنسة خيرة بنت أبي طالب عام 1823م، وقد مكث في هذه المنطقة (القيطنة) وشغل معلّما.[5]

3– زهده وعلمه:

وصف العديد من المؤرخين الأذواق والعادات والسلوك الإجتماعي لعبد القادر الجزائري أهمّها أنّه كان يزدري الترف في الملبس، فكانت كسوته بسيطة نظيفة، وكان غاية في الدين، ويحمل دوماً مسبحة لا يقف عن التسبيح بها ذاكراً اِسم الله، كان فارساً شجاعاً بِاستطاعته اِمتطاء الفرس لمدّة يومين، كان زاهداً مثالياً وكان الأكل عنده على الأكثر " الروينة " فلم يقبل الطعام إلاّ لقوّته وليس لذاته، إذ يرى في قلّة الأكل وفرة للصحة، وكان عفيفاً عن الأموال يقتنع من اِقتطاع أيّ شيء من الخزينة لأعراضه الخاصة، وكان يراقب موظّفيه ويمنعهم من الإسراف، كما كان يُحبّ الكتب ويهتمّ بجمع المخطوطات، كان يحبّ الشِّعر والشعراء، ويشجّع على الأناشيد الملحمية التي تفدي المقاتلين الجزائريّين، حيث يكمن طابعها الجواب بإيمانه للوطن وولائه.[6]

إضافةً إلى ذلك أنّه لم يكن قاسياً بطبعه، وخيرات الأرض لم تسيطر على قلبه، وقتاً له للمستعمر المعتدي.كان يؤم جنوده للصلاة يوميّاً، كان متأمّلاً ومتدبّراً لمعاني القرآن الكريم الذي هو زاده الرّوحي

ومرجعه الكبير في خطبه ومواعظه، وكان يستلهم الصلابة والثبات والصعود من إيمانه العميق والمنهج الربّانيّ في العسر واليسر والمنشط والمكره والرّخاء والشدّة.[7]

4- رحلة الأمير عبد القادر مع والده للحج:

قصد محي الدين مع اِبنه عبد القادر الحج عن طريق البر والبحر، وكانت بدايتهما من وهران مروراً بوادي الشلف، وبرج حمزة، فمدينة قسنطينة، ثمّ محطة الكاف ومنها إلى مدينة تونس، وكنّا في كلّ محطة كما يروي ننزل عند إخواننا وأحبّائنا الذين فرحوا بمقدمنا عندهم، ومن تونس ركبنا البحر اِتجاه الإسكندرية، وفرزنا معالمها ووقفنا عند باب البحر عند مقامي الشيخ أبي العباس المرسي وأبي الحسن. وانتقلوا بعدها إلى القاهرة وزاروا بالمقطم مقام مرشد السالكين الشيخ اِبن عطاء الله السكندري، أحد شيوخ الطريقة الشاذلية، كما زاروا مساجدها العربية، وتعرّفوا على أعيان المدينة وكبرائها، وجالسوا علماءها من أمثال الشيخ علي بن محمد بن محمد الميلي والشيخ المعروف بِابن الأمير، وأُعجبوا إعجاباً شديداً بما وصلت إليه الحياة في مصر من تقدّم وازدهار في كلّ المجالات العلمية والاِقتصادية والصناعية، وكانت هذه الفترة في عهدة محمد علي باشا.[8]

وبعد أداء فريضة الحجّ زاروا المدينة المنوّرة وصلوا على الرسول عليه الصلاة والسلام أمام قبره وترحّموا على الصحابة والتابعين بالبقيع، ومن المدينة وصلوا إلى دمشق بصحبة الشامي ومكثوا فيها عدّة أشهر وتعرّفوا على مشاهير الصلحاء والعلماء والأعلام، وكانوا يقضون جلّ وقتهم في الجامع الأموي دائبين على القراءات وحضور حلقات الدروس العلمية التي كان يدرس فيها كبار العلماء، وقرأوا الحديث وصحيح البخاري بالجامع الأموي على يد الإمام المحدث عبد الرحمان بن محمد الكزبري الشافعي الدمشقي محدث الديار الشامية والمشهورة بتدريس البخاري الشريف وكانت عامّة العلماء تحضر للأخذ عنه العلم وعلى غيره من علماء الشام، ثمّ توجّهوا إلى مدينة بغداد واستقربهم المقام فيها، وزاروا مقام عبد القادر الجيلالي وجدّدوا العهد مع نقيب الأشراف وشيخ السادة القادرية الشيخ محمود القادري الجيلالي، ومكثوا هناك عدّة أشهر، ثم شدّوا الرحيل إلى الشام ثانيةً ثمّ المدينة المنوّرة ثمّ مكّة لتأدية مناسك الحجّ للمرّة الثانية

وانصرفوا نحو القاهرة مع الركب الحجازي الذي قدم من المغرب العربي وأخيراً وصلوا إلى أهلهم سالمين غانمين. [9]

5– وفاة الأمير عبد القادر:

كان الأمير عبد القادر يتمتع بصحّة جيّدة في شبابه وحتى في شيخوخته على الرغم ممّا تحمّله من نوائب الدهر ومصائب الزمن من جهاد وكفاح وأسر في سبيل الله والوطن،[10] حيث تحمّل ذلك بجلد وصبر ونفس قويّة إلى أن أصيب في آخر أيّامه بورم يمنعه من المشي إلى جانب إصابته بمرض الكلى والمثانة، ومع ذلك لم يُظهر ضجراً، ولميترك الصلاة في أوقاتها وفي الساعة السابعة من ليلة يوم السبت 19 رجب عام 1300هـ الموافق لِـ 24 يناير عام 1883م وفاته بنفس راضية، وذلك في قصره في قرية دمر بضاحية دمشق عن عمر 76 حولاً.

ثانيا: بيعة الأمير عبد القادر:

1– مفهوم البيعة:

تعريف اِبن خلدون: العهد على الطاعة لوليّ الأمر [11] وقيل هي البيعة على التعاقد على الإسلام وهي أخذ الميثاق والمعاهدة على إحياء ما أحياه الكتاب والسنّة، وإقامة ما أقامه، وكان المسلمون إذا بايعوا الأمير جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد والولاء، وكأنّها بيع من بائع ومشتري فسُمّيت البيعة.وهي بمعناها الخاص: هو إعطاء الولاء والسمع والطاعة للأمير مقابل الحكم بما أنزل الله تعالى، وأنّها في جوهرها وأصلها عقد ميثاق بين طرفين الأمير من جهة وهو الطرف الأوّل والشعب من جهة ثانية، وهو الطرف الثاني فالأمير يبايع على حكم الكتاب والسنّة والخضوع التام للشريعة عقيدة وشريعة ونظام الحياة، والشعب يبايع على الخضوع والسمع والطاعة للأمير أو الرئيس في حدود الشريعة.

2- بيعة الأمير عبد القادر:

بعد اِنقضاء عامين على سقوط العاصمة الجزائرية كان الإِحتلال الفرنسي قد اِمتدّ إلى إقليم التيطري ووهران وسهل متيجة، اِعتراف حكام هذه المناطق بالتبعية للفرنسيّين على أهل الإِحتفاظ بمناصبهم وامتيازاتهم، ومن ثمّ سارعت فرنسا إلى اِحتلال ميناء عنابة 1832م تمهيداً لبسط نفوذها على الإقليم الشرقي من البلاد بيد أنّ اِستقرار الغزاة في هذه المناطق المحتلّة سرعان ما أُجيب بحركة المقاومة الشعبية التي كانت الأسلوب الوحيد المتاح في تلك المرحلة الصعبة للتعبير عن ردّ فعله العنيف وموقفه الرافض تماماً للإِحتلال.

وتمثل الثورة الشعبية التي قاد صفوفها الأمير عبد القادر بن محي الدين (1808-1883م) مرحلة حاسمة من مراحل الكفاح المسلّح ضدّ الإِحتلال الفرنسي في طوره الأوّل، وقد ساهمت في تكوين شخصية الأمير عبد القادر مؤثرات بيئية عن طريق محيطه الأسري الذي اِستقى منه العلوم الإسلامية، وخاصةً سيرة الرسول صلى الله عليه وسلّم، وعظماء الإسلام ومؤثرات إسلامية عربية قد ترسّخت في نفسه بعد زيارته للديار المقدّسة، وعدد من الأقطار العربية مؤثرات إنسانية تولّدت نتيجة اِهتمامه بدراسة الفلسفة اليونانية والعلوم الإنسانية.[12]

أمّا المؤثر الهام والحقيقي الذي أظهر الأمير كزعيم وثائر وطني، فهو تعرّض بلاده إلى الإِحتلال في عام 1830م ونضاله ضدّ هذا الإِحتلال خمسة عشر عاماً متواصلة. وفي صيف عام 1832م عقدت القبائل الرئيسية في إقليم وهران اِجتماعاً طارئاً لتنظيم الجهاد ضدّ الفرنسيّين بعد اِنسحاب ممثل سلطان المغرب من تلمسان تحت التهديد الفرنسي، ولما عرضت هذه القبائل على والد الأمير عبد القادر بصفته الزعيم الرّوحي لها قيادتها في هذه الحرب التحريرية، أشار عليها بِاختيار اِبنه عبد القادر رشيداً بكفاءته وعزيمته.

ظهر والد الأمير عبد القادر بنفسه الثائرة والمقاتلة المحبّة للوطن ضدّ الغزو المحتلّ، وقيادته الفذّة للقبائل للجهاد في سبيل الله، وبعدها أشار سهم بكفاءة اِبنه عبد القادر وقد أقنعهم بقدرته على ذلك

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد السادس / العدد: الثاني
(جمادى الأولى 1444هـ/ ديسمبر 2022م)، ص 369– 392

حيث اِتفق الأهالي على موعد لعقد البيعة صباح الإثنين اليوم الثالث من شهر رجب (1248هـ-1832م) أخذ زعماء المناطق يتوافدون على منطقة غريس التي تعوّدوا على الإجتماع بها مع محي الدين يجلسون تحت الدردارة للتشاور معه قصد جلسات علمية فقهية، أو لحلّ بعض المشاكل الإجتماعية. وفي هذا المكان تمّت مبايعة الأمير الشاب القويّ وهو على درجة عالية من العلم وفارس شجاع ووسيم الطلعة شريف النسب كريم ومتواضع يحظى بإحترام الجميع، وقد حضر البيعة وفود وزعماء القبائل وأعيان المدن والأشراف والعلماء وزعماء القبائل الشرقية والغربية وعطاف وسنجاس، وبنو القصير ومرابطو ببجاية وجميع بنو خديد وبنو العباس وعكرمة، وقليته والمطاملية ومجاهرو البرجية والدوائر والزمالة والغرابة واليعقوبية، وخيموا في مناطق أريحة من مناطق غريس حول شجرة الدردار.

وفي وسط تلك الجموع الهائلة وقف الشريف محي الدين فيهم إماماً، وصلّى صلاة العصر وبعد أن صلّى ركعتين صلاة الإستخارة، اِقترح أن يكون التوقيع على نص المبايعة في مسجد الحسن في عين البيضاء، فوافق الجميع، وقد اِختار يوماً للتوقيع على المبايعة الثالث عشر رمضان 1248هـ الموافق للرابع من فيفري عام 1833م.

3- نص البيعة وخطبة الأمير:

كان الشريف قد كلّف منذ فترة أخاه العلاّمة علي بن أبي طالب بن مصطفى بن المختار بكتابة نص البيعة وبمساعدة بعض العلماء والأشراف، كالسيد محمد بن حوا والعالم محمد الثعالبي والسيد عبد الرحمان بن حسن الدحاوي، وإخوته العلماء والسيد محمد بن عبد الله المشرفي وعبد القادر بن محي الدين.[13]

خاطب الأمير عبد القادر زعماء القبائل والأعيان وممثّلي العشائر والعلماء، بعد ذكر اِسم الله الرحمان الرحيم والصلاة على رسوله، بقوله: إنّي لست أفضَلُكُمْ خلقاً وشجاعة وحكمة، ولم يخطر لي هذا المنصب يوماً ولكنّني أُجبرتُ عليه كما تعلمون، فهو مسؤولية أمام الله وأمامكم، وأرجو من تعالى التوفيق

والعون، لتطهير البلاد من الغزاة، ورفع راية الإسلام عالية في سماء بلادنا، فالإسلام هو الذي وحّد قبائلنا بعد شتات وجعلها قوّة لا تُقهر تدفعنا إلى ميادين المجد والشرف، وجعلنا إخوة يحبّ أحدنا لأخيه ما يحبّ لنفسه، ولا فرق بين عربيّ وأعجميّ ولا أبيض ولا أسود إلّا بالتقوى، وأمرنا بالعدل والمساواة.

وإذا عدنا إلى التاريخ نجد كلّ من دخل هذه البلاد غازياً من رومان وفاندال وإسبان هزمتهم قوّة بأس وشجاعة الأجداد، وكان هدف غزوتهم لبلادنا إخضاع شعوبنا وإذلالها ونهب خيرات بلادنا لزيادة رفاهية شعوبهم والدين خالف النصر أعلامهم من الفاتحين، حملوا إلى هذه البلاد حضارة إلهية وشيّدوا صروحاً من القيم باقية إلى الأبد، لا ينصب معينها، ودخلوا هذه البلاد لتكون دعوة الإسلام حرّة فيما قال الله تعالى:" وما أرسلناك إلَّا رحمةً للعالمين" {الأنبياء، آية 107}.وشيّدوا مدناً راقية لا يزال آثارها تشهد عليها في مدننا في فاس وقرطبة، غرناطة وإشبيلية وفي وهران وقسنطينة، إخوتي في الإسلام... أيُّها السادة زعماء القبائل والعلماء... أيّها المجاهدون من أبناء هذا الوطن العظيم! سنكون أقوياء، سندافع عن الرّاية والرسالة التي عملها لنا طارق بن زياد وموسى بن نُصير، وسيظلّ إرتباطنا وثيقاً بدولة الخلافة العثمانية إرتباطاً روحيّاً بنظامها الإسلامي، نكون جاحدين لأعمال الأخيار من الولاّة في خدمة الإسلام، ومحاربتهم لقوى الشرّ في بلادنا، ولن تخرج دولتنا عن طاعة الخليفة، ولن نكون عوناً لأعدائنا عليها، كما كان والدي: هذا المنصب الذي إخترتموني له لن يكون متوارثاً، وأرفض لقب السلطان أو الملك "حسبي الله لا إله إلَّا هو عليه توكّلت وهو ربُّ العرش العظيم" {التوبة، آية 192} والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. [14]

إستقبلت الجماهير هذه الخطبة الحماسية بالتكبيرات التي دوتْ المسجد، ثمّ نهض العالم الفقيه محمد بن حوا، وكان يرتدي الثوب الجزائري وفوقه البرنوس الأبيض وعلى رأسه عمامة بيضاء، وقرأ نصّ البيعة:[15]

بِاسم الله الرحمان الرحيم والصلاة والسلام على سيّدنا محمد وعلى آله أجمعين، بعد مبايعة الإمام الجليل الشريف محي الدين وتناوله عنها لولده عبد القادر بن محي الدين أحيا الله بهما الدين وأعانهما على القيام بإعلاء كلمته،[16] وأهلك بدولتهما أهل البغي والفساد والغزاة المعتدين، نحن جميعاً علماء غريس وأشرفها وما جاورها وزعماء قبائل العباس والخالدي والإبراهيمي والحساني والعوفي والجعفري، والبرحي

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830
المجلد السادس / العدد: الثاني
(جمادى الأولى 1444هـ/ ديسمبر 2022م)، ص 369– 392

والشقراني والزلامطة ومغراوة، وبني السيد وحق الخلوية والمشارف وكافة أهل وادي الحمام وزعماء الدوائر والزمالة، وبني خويدم وعكرمة وفلقية والمفاحلية والغراية والحساسة وأولاد الشريف وصدامة، وكلّ من حضر هذه البيعة، نبايع أبا المكارم ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين صاحب الفضل المجاهد الشجاع ذا النسب الشريف قامع أعداء الله الظالمين، أيّده الله بنصره، نبايعه على الجهاد والحكم بكتاب الله وسنّة رسوله وعلى الطاعة ونصرة الله في السرّاء والضرّاء، ومن نكث فإنّما ينكث على نفسه وخسر يومه وأمسه والله الموفّق. وخرجت الجموع متفائلة مستبشرة يُهنّئ بعضهم بعضاً.[17]

ثالثا: تجلّيات إيديولوجية الوطن والمواطنة من خلال خطبة ونصّ بيعة الأمير عبد القادر:

1- مفهوم الإيديولوجية:

لقد شغل العديد من المفكّرين لمصطلح الإيديولوجيا منهم دور كايم وَ ماكس وَ إنجليز وَ دست وات وَغيرهم، وقد نعثر في بعض الدراسات على تتبّع مراحل تطويرها وكيفية بلورة المصطلح والمعاني التي تلوّن بها عبر التاريخ، كما أسهم هؤلاء بالعديد من التعريفات الفلسفية للمصطلح، والتي قد تزيده غوصاً لطبيعة تفرّعها وهي سمة اِرتبطت بالمصطلح منذ البداية، حيث يقول عبد الإله العروي: أنّ كلمة الإيديولوجيا دخيلة على جميع اللغات الحيّة، وتعني لغوياً في أصلها الفرنسي علم الأفكار، ولكنّها لم تحتفظ بمعناها اللغوي، إذ اِستعارها الألمان وضعوها معنى آخر، ثمّ رجعت إلى فرنسيات فأصبحت دخيلة حتى في لغتها الأصلية.[18]

من خلال هذه الإنطلاقة التي مكّنت المصطلح من أكثر من معنى يشرح لنا العروي الغموض الذي لف المصطلح عن تباين الدراسات التي تناولته، ولكنّنا لا نودّ أن نخوض في هذه الإشكالية بقدر ما نسعى لتقديم تعريفاً يوافق وسياق موضوعنا الذي اِرتبط فيه المصطلح بمفهوم الوطن والوطنية، وفي هذا المقام يعرّف د. شبل بدران الإيديولوجيا بقوله: هي جملة الآراء المنهجية نسبياً، والتي يُعتبر اِرتباطها الوظيفي مع مصالح وطموحات فئة اِجتماعية سمتها متميّزة، وتدخل فيها أفكار نشأت وانتشرت على أرضية التجربة

التاريخية والشروط الحياتيّة للفئة الإجتماعية المعيّنة من أجل وصف الواقع وتقييمه، كما تدخل فيها التوجيهات السلوكية من هذه الأفكار.[19]

ويشير الكاتب بوضوح في تعريفه للإيديولوجيا على أنّها أفكار منهجية تنتجها فئة إجتماعية لخدمة مصالحها وطموحاتها، وهذه الأفكار تقوم على أرضية متينة وقويّة شكلها التاريخ هذه الفئة وظروف حياتها، فالإيديولوجيا عنصراً أساسياً في تحديد الهوية الوطنية للجماعة من حيث أنّها أفكار مُمنهجة ترمي لتحقيق مصالح المجموعة.

وبهذا المفهوم تكون الإيديولوجيا بمثابة روح الهوية الوطنية وممارسة الوطنية لجماعة ترتبط أفرادها تاريخ مشترك مصير مشترك. ويضيف د. شبل بدران تعريفاً آخراً للإيديولوجيا بقوله: "الإيديولوجيا مجموعة المفاهيم التي تكوّنها جماعة البشر عن أوضاعها في ظرف تاريخي معيّن".[20]

وهذا التعريف يقرّبنا أكثر من مفهوم الهوية الوطنية، فالإيديولوجيا التي تنتجها الجماعة بهذا المنطلق تكون بمثابة وعي الجماعة بواقعها وظروفها، وهذا الوعي لا يمكن أن يكون خارج البعد التاريخي لهذه الجماعة، وبالتالي هذه الإيديولوجيا التي أنتجتها الجماعة تأخذ بعين الإعتبار ملامح هويتها عن وعي لإرتباطها وثيقاً بالهوية الجماعية، وإذا علمنا أنّ الأفراد يجتمعون أساساً من أجل تحقيق هوية المصالح المشتركة، التي يعجزوا عن تحقيقها إفراداً فذلك يؤكد كون الوطنية بمثابة شعار كبير الذي يستقطب أفراد هذه الجماعة، ويكون في ذات الوقت الإسمنت الذي يقوّي أواصر ترابط الجماعة، وتظهر التعريف أنّ الإيديولوجيا كعنصر مهمّ لهذه الجماعة يزيد من ترابطها ويرسم أمامها الطريق بكلّ وضوح لتحقيق مصالحها.

وفي هذا السياق يقول د. بدران:" لا تستطيع جماعة أن تنطلق في مشروعات تطويرية وتحريرية ما لم تكن بنت تصوّراً عن حاجتها وعن الوسائل الكفيلة بتحقيق ما يلي هذه الحاجات والتصوّرات، أي ما لم تكن قد أنشأت إيديولوجيا تسترشد بها لتحقيق مآربها".[21]

2- المواطنة والوطن في اللغة والإصطلاح:

جاءت المواطنة من: واطنه على الأمر مواطنة، وواطن القوم: عاش معهم في وطن واحد. وفعل واطن بمعنى شارك المكان مولداً وإقامة، لأنّ الفعل على وزن "فاعل"، والمواطنة تعني: المنزل الذي تقيم به، وهو موطن الإنسان ومحلّه، والجمع أوطان، ومواطن. مكّة: مواقفها، ومن ذلك: وطن المكان وأوطنه، اِتخذه وطناً، ويُقال فلان كذا وكذا، أي اِتخذها محلّاً ومسكناً يقيم فيه. [22] وفي معجم الوسيط: الوطن: مكان إقامة الإنسان ومقرّه وُلد به أو لم يولد.

والوطنية مصدر صناعي منسوب إلى الوطن، كما يُقال: القومية؛ نسبةً إلى القوم. وكلاً من فكرة الوطن والمواطنة[23] تقوم على حاجة الإنسان إلى المكان وارتباطه به والمواطنة ذات الأصل العربي مرتبط بموطن الإنسان ومستقرّه، وانتمائه الجغرافي، ولكنّها في نفسها كتركيب ومصطلح تمّ اِستحداثها تعبيراً عن الوضعية السياسية والمدنية والحقوقية للفرد في الدولة، وبذلك تكون المواطنة هي: رابطة اِلتزامية تقوم في الزمان والمكان الواحد.[24]

أمّا في الاصطلاح، فيُعرّف الوطن بأنّه، بشكل عام قطعة الأرض التي تعمرها الأمّة بشكل خاص وهو المسكن فالروح وطن لأنّها مسكن الإدراكات، والبدن وطن لكونه مسكن الروح والثياب وطن لوطنها مسكن البدن، فالمنزل والمدنية والدولة والعالم كلّها أوطان لكونها مساكن.[25] والمواطنة هي علاقة بين فرد ودولة، كما يحدّدها قانون تلك الدولة، وبما يتضمّنه تلك العلاقة من واجبات وحقوق في تلك الدولة.

وعليه فالوطن هو ذلك المكان جزء الجغرافي من الأرض الذي تعيش عليه مجموعة من الأفراد تتفاعل فيما بينها بعلاقات إنسانية وعاطفية وروحية، وثقافية ومادية وغيرها، وبشكل عام فالمواطنة هي جميع الممارسات المادية والمعنوية اِتجاه الوطن، والوطنية هي أعلى درجات المواطنة.

3- تجلّيات المواطنة في خطبة الأمير:

إنّ خطبة ونصّ البيعة تُعدُّ وثيقة تاريخية هامّة في الحياة السياسية والتاريخية للدولة الجزائرية بل هي الرحم الحقيقي لها، واللبنة الأولى لدستور الأمّة الجزائرية الذي كان ميلادها بمبايعة الأمير عبد القادر بإجماع

شعبيّ اِستمدّ منه شرعيته، حيث توافدت الوفود لمبايعة الأمير، ولقد وقفوا على الوثيقة التي أعدّها العلاّمة السيد محمود بن حوا المجاهري، والتي يمكن اِعتبارها "البيان الوزاري الأوّل"، وقد جرت البيعة وفقاً لأحكامها.

وبالتالي يمكن اِعتبار هذه الطريقة دليلاً قاطعاً أنّ هذه الدولة هي دولة إسلامية المنبثقة من إرادة الشعب،[26] إذا كان تعينه نتيجة للاِنتخاب حرّ من القبائل التي لم يفرض أبداً نفسه عليها بالقوّة، بل أصرّ على أن يكتب على البيان التعيّن أنّه لم يقبل إلاّ إلحاح قادة القبائل وزعماء الحاضرين، وقد قبل بحكم الواجب معترفاً بثقل المسؤولية أمام الله والشعب، راجياً من الله العون لتطهير البلاد من الغزاة، ورفع راية الإسلام عالية، هذه الراية التي أمرنا الله بالمحافظة عليها اليوم وبعد الاِحتلال الفرنسي الغاشم دنسها وشوّهها فأصبح واجباً الدفاع عنها بالنفس والنفيس.[27]

فحاجة الجماعة للاِتحاد ووضع اليد باليد يُشكل قوّة يمكن لها أن تجابها الاِستعمار، ولكن هذه القوّة تحتاج إلى التخطيط والتدبير، وإلى أفكار منهجية تنتجها لخدمة مصالحها وطموحها وهو طرد الاِستعمار فكانت إيديولوجية المواطنة في الدفاع عن الأرض والممتلكات ودون عن الحرمات كون أنّ الاِستعمار ظاهرة تمسّ جميع شرائح المجتمع الجزائري.

هذا المجتمع الموقد بفضل الإسلام الذي لم يفرّق بين الأبيض والأسود إلاّ بالعمل الصالح. ولما كان الاِستعمار الفرنسي محتلاً لشمال إفريقيا- تونس- الجزائر والمغرب الأقصى، تفطّن الأمير إلى أنّ هدف الجماعة التي تربطها قواسم مشتركة كقرابة، والدم والعقيدة والأرض والتاريخ المشترك، لا يمكن أن يتحقق إلاّ بالتضامن والاِتحاد (الوحدة المغاربية) مدركاً أنّه لا يمكن له مقاومة الاِستعمار الفرنسي لوحده مستأنساً بالماضي المجيد في محاربة الرومان [28]و ونانداّل[29] والإسبان والاِنتصار عليهم، وذلك لربط اللاّوعي الجماعي بنصر قريب، وشدّ الهمم وتحفيزها نحو الإنجاز الذي يتوّج بأعلى درجات المواطن، وهي الوطنية الثائرة في حمل السيف والمضي قدماً نحو النصر أو الشهادة.

ولكي تستمرّ هذه الجماعة وحدة موحّدة الأهداف والغايات لابدّ أن يسترد بين أفرادها– المواطنين– الإنصاف الذي يُعتبر الإسمنت الحقيقي في بناء الوطنية الموحّدة بين المواطنين، وقد أدرك الأمير عبد القادر الجزائري أنّ العدل والمساواة بين الجزائريّين لا يتحقق إلاّ بنظام القضاء رغم اِنحصاره في لزوميات القتال وخطط المعارك، وما تقتضيه من دراية، واهتمّ بكلّ ما يقوّي دولته ويقوّي بنياتها، ولأجل ذلك اِهتمّ بتنظيم القضاء ولما له من أهمّية في تدعيم سير الدولة، وإحلال الأمن والاِستقرار، وكان رئيس مجلس الشورى في مدينة معسكر مسؤولاً عن هذه السلطة، أمّا القضاة المحلّيون فقد تمّ تقسيمهم إلى قضاة مدنيّين وعسكريّين، وكانوا يتعيّنون لسنة واحدة قابلة للتجديد بشرط الكفاءة العالية والحكم بكتاب الله وسنّة رسوله.

وكان القضاة المدنيّون أُنيطت بهم مهمّة الاِفتاء في الدعوى والفصل في الخصومات على مذهب الإمام مالك وألحق بكلّ مجلس مدني، كما تبيّن يقوم الأكبر منهما بدراسة الفتاوى التي تصدر عن القاضي فيبتّ بالثانوية منها ويحيل الأساسية إلى معسكر للحكم فيها، أمّا القضاة العسكريّون عيّن الأمير على رأس هذا للجهاز بن مصطفى المشرفي في معسكر، وفي كلّ كتيبة قاضٍ يساعده مسؤولان في إصدار الأحكام وتنفيذها، أحدهما آمر محضر الشرطة العسكرية ويذكر أديب الحرب بأنّ صلاحيات هؤلاء القضاة اِنحصرت في القضايا الخاصة بالأحوال الشخصية، كما يمكن الطعن في الأحكام أما مجلس الشورى.[30]

كما شغل الأمير المناصب العامّة برجال نبلاء المتميّزون بالشخصية القوية والسمعة النظيفة لذلك شاع بين كلّ طبقات المجتمع من القمّة إلى القاعدة شعور عالٍ بالواجب والاِحترام، وحبّ الوطن لأنّ أساس العمل كان الدين والفضيلة والشرف والأخلاق التي تبدّدت تحت وطأة الاِستعمار فقد حقّق العدل والمساواة كما وعد في خطبة البيعة بأنّه جعل الرجل المناسب في المكان المناسب وكلّ هؤلاء مسؤولون أمام الأمير تحت الرقابة الشعبية.

إنّ مبايعة الأمير قصد تنظيم الصفوف والجهاد في سبيل الله وطرد الإستعمار من الأرض الطيّبة أرض الفاتحين، وهو الذي قال: سنكون أقوياء، سندافع عن الراية والرسالة [31]نعم... إستمر الأمير عبد القادر في الدفاع وفي توسيع رقعة سلطته في شمال إفريقيا، وهو يحاول أن يحافظ على وضعه الذي يجعله متفوّقاً على الفرنسيّين، ويسعى في الوقت نفسه إلى علاقات سياسية مع المغرب.

لقد سعى إلى العثور على موارد في بلاده، كان في غنى عنها قبل ذلك، فأعاد بناء مدينة تاتداميت وأقام حسب أقوال بعض الفارّين محمّلاً لسبك المدافع في تلمسان وبدأ في بناء مثيل له في مليانة، وقد طلب من الجزائر آلة لضرب السكة إضافةً إلى آليات مختلفة، كما أوصى بجلب عمّال وفنّيّين من أوربا يلزمهم بمساعدته في العمل بالمنشآت الجديدة المختلفة، التي يريد بناءها إذ كان فكر الأمير عبد القادر الخلاق يكشف له بِاستمرار عن وفرته وثرائه، وكانت مطامحه كلّها متجهة إلى أن يجعل من شعبه أمّة وتتمثل سياسته في أن يرفع نفسه عن طريق علاقته بفرنسا ويمنع بالمقابل أيّ تقارب بين أمّته وبين الفرنسيّين حتى لا تقوى الحركة التجارية المشتركة.

وبذلك يكون مستعداً بصورة دائمة لقطع علاقاته مع فرنسا، ومن المرجح أنّ وقوع ذلك لم يعد بعيداً إن ظلّت السياسة الفرنسية في الجزائر تواصل نظام التوسع الكثير التكاليف القليل الفائدة بحيث يشمل نقطاً أخرى، يبدو أنّ الحكومة في الوقت الأخير تريد تبنّيها ولذلك لم يكن في موقف الأمير عبد القادر من الفرنسيّين ما يدلّ على أنّه ينوي إقامة علاقات مستمرة ودائمة معهم،[32] وهو ما لم يكن يتلاءم مع مصالحه الحقيقية أيضاً، وأفضل ما يناسب مشاريعه هو تناوب الحرب والسلام ذلك أنّ محاربة المسيحيّين أفضل عمل بالنسبة لأبناء شعبه والحرب هي أحسن وسيلة يكتسب بها مؤيّدين جدداً– والسلام مفيد وضروري بالنسبة إليه لتنظيم الشؤون الداخلية، ويحافظ على آلاته الحربية ويزيد من عددها عن طريق العلاقات التجارية مع فرنسا، فإذا ما نشبت الحرب مرّة أخرى فمن المؤكّد أنّ الفرنسيّين سيعرفون أنّ قوة الأمير عبد القادر أكبر من أيّ وقت مضى. [33]

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد السادس / العدد: الثاني
(جمادى الأولى 1444هـ/ ديسمبر 2022م)، ص 369– 392

إنّنا أمام عقد تاريخي، تمّ فيه الإتفاق بين إرادة إنسانية حرّة وأفكار واعية ناضجة من أجل تحقيق الرسالة السامية، فخطّطت لها إيديولوجية [34] فذّة اِستطاعت لملمة شتات نحو أمّة قويّة بمعسكرها الحربيّ الذي فاجئ العدو، " لقد فوجئتُ مفاجأة كبيرة جداً عندما رأيتُ هذا المعسكر الحربيّ الكامل، وهذه الجموع المسلّحة التي تخضع لرجل واحد، وقد اِصطفّوا عند قدوم جنديّ فرنسي، لقد أُعجبتُ إعجاباً شديداً بهذه الوجوه، المعبّرة والأجسام الضخمة والعضلات المفتولة التي هي ثمرة الحرّية والحياة الطليقة وأُعجبتُ بخيولهم التي تتسع لأدنى حركة، وتظلّ على أتمّ الإستعداد للاِندفاع عند سماع أدنى ضجّة حربيّة وقد سبق لها أن برهنتْ على ذلك في عدّة معارك معنا".[35] فكان الرجل عند وعده بأن يجعل هذا الوطن عظيماً بعظمة أبنائه المجاهدين المقاتلين الأشاوس...

إنّ الحديث عن إيديولوجية في نصّ خطبة البيعة، سيجرّنا إلى الجانب الفنّي للنص وهي الخطبة، فنٌّ نثريٌّ، عرفته العرب منذ الجاهلية في المناسبات خاصةً الحربية منها وازدهرت اِزدهاراً كبيراً في صدر الإسلام لحاجة المسلمين لها، لمعرفة أمور دينهم ولخوض غمار الفتح الإسلامي وتتكوّن من مقدمة وعرض وخاتمة. حيث تُستهلّ المقدمة بالبسملة والحمد والثناء وصولاً إلى الخاتمة بالحمد والشكر بالآيات من القرآن الكريم وهو بهذا التقليد أحيا سنّة الراشدين والفاتحين بأسلوب قديم جديد قصد توحيد الأفكار نحو الجهاد من أجل الأمّة الجزائرية، التي عملت فرنسا على تجريد شعبها من سيادته(استلام الداي حسين) ورمت بالسيادة إلى مجهول، وكان نتيجة لهذا الفعل فعل مضاد قام به علماء الجزائر ومشايخها، حيث أجهضوا كل محاولات التفرقة ببيعة الأمير عبد القادر.

تعتبر الإيديولوجيا مكوّنا أساسياً في النص، أي أنّها تكوّن بعده المعرفي وإلاّ فإنّه يصبح كلاماً منغلقاً لا يحمل أيّة دلالة معنوية، ذلك أنّ النص لا يقوم على بنية لسانية مجرّدة، بل على بنية خارج لسانية تتداخل فيها مجموعة هامّة من القيم الإيديولوجية ذات الأصول المختلفة.[36]

فالإيديولوجية هي تعبير عن أفكار دينية وطنية وسياسية، ولما كانت مكانة الجهاد مقدّسة عند الجزائريّين كانت هي الورقة الرابحة في الخطبة التي رغب فيها الجهاد ومن أجل الإقبال عليه، كما رهب الخونة والمتغافلين عن هذه العبادة، وقد اعتمد على مجموعة من الآليات للإقناع وكانت في مجملهامن النص القرآني والحديث الشريف بصورة ظاهرة وواضحة، وهذا إن دلّ إنما يدلّ على التمسّك الشديد للجزائريّين بمقومات الهوية الوطنية، وتظهر لنا ثنائية متناقضة في فعل فرنسا بطمس الهوية وجعل الشعب في حالة انفصال عن القيم والثوابت الوطنية، حيث ردّت الإيديولوجية الفذّة عليها وجعلتها في حالة اتصال بنجاح كبير حين اعتنق الجزائريّون الجهاد.[337]

إنّ التعبير الإيديولوجي يأخذ منطلقات فكرية مختلفة ومقاصد متباينة، ولذلك فإنّ الإيديولوجية لها أنماط متعددة ظهرت من خلال الخطبة والبيعة، مثل العودة إلى الوراء حيث اتجهت نحو الماضي التليد للحفر فيه للبحث عن الذات بين ثناياه، وهذا يعني أنّ الواقع الحاضر لا يبني مجداً ولا يحقق نصراً، وعليه فإنّ القوة إنما تُستمد من العودة إلى أيام سيادة الأمة وأخذ العبرة منها، مثل بطولات موسى بن نصير ومقاومة الغزاة من الرومان والوندال.

إنّ هذه الخطبة ونصّ البيعة توضح لنا جانباً مهمّاً من الإلقاء الفنّي الساحر الذي استمال الرعية نحو الجهاد وهي اللغة التي ولّاها الدارسون التاريخ أهمية كبيرة نظراً لمكانتها في العمل الأدبي بِاعتبارها العنصر الأوّل في كل عمل فنّي يستخدم الكلمة كأداة للتعبير ممّا جعلها تكتسب صفة التميّز والتنوّع. وهذا ما نلمسه في الخطبة بصورة فنّية جمالية رائعة تتلوّن فيها اللغة من خطابية وتقريرية تتراءى في طيّاتها أهداف خادمة للوطن، وهي تخاطب الرعية نحو الإتحاد في نفس الوقت تردّ على الخصم وتقارعه بالحجة الدامغة، وذلك بِاستعمال النداء بكثرة: أيّها السادة، أيّها المجاهدون، وقد تكرّر عدّة مرّات بهدف التأكيد ولفت الإنتباه والحرص على حماية الوطن، كما استعمل الألفاظ الدالّة على هذا الهدف، مثل: المجاهدون وَضدّ الغزاة، العز والمجد... التي كثيراً ما تستعمل في الخطب الرسمية بالإضافة إلى استعمال ضمير كاف الخطاب في عدة مواقع، ممّا جعل اللغة مليئة غير ثقيلة ولا مملّة.

كما تستعمل في هذه الفنّية سرد الحقائق الواقعية(احتلال الجزائر)، الدعوة إلى الجهاد بلهجة تقريرية تعالج موضوع الوحدة الوطنية ممّا يفرض على صاحبها الموضوعية، فلا تسمح له بظهور الذات إلّا نادراً. ولقد جاءت اللغة التقريرية خادمة لحقائق فكرية تاريخية وتهتف إلى إيصال إيديولوجي معيّنة وهي تحرير الوطن الذي لا يكون إلّا بالمقاومة، ومن ميزتها طابعها العقلي كونها وسيلة من وسائل الوعي والإصلاح والإستعداد لمواجهة العدو بأسلوب سلس سريع الوصول إلى العقل المستمع.

إنّه ليس من الصدفة النحوية في اِستعمال س بدلاً من سوف في قوله: سنظلّ، سنكون، سندافع. فالسّين للمستقبل القريب، بينما سوف للمستقبل البعيد، والمسألة المهمّة، مثل الجهاد تقتضي الزمن القريب والفوري، لكن بعدما ترسم طريقها الصحيح.

فنجده قد اِستعمل ضمير جماعة المتكلّمين النون في قوله مثلاً: بلادنا– قبائلنا– تدفعنا– ليُبيّن أنّه واحدٌ منهم، ولأنّ ضمير جماعة المتكلّمين يعطي أكثر قوة للمعنى ويجعل من نفسية الجماعة أكثر حماسة واستعداداً وهو يخاطب السادة الزعماء... أيُّها السادة... أيُّها المجاهد وبأداة النداء أي، وليس يا أيها فهي لنداء القريب، بمعنى الجماعة قريبة إلى الهدف وهو الجهاد.

ولأنّ هذا الرجل رجل دولة وأخلاق وثائر وطني، كانت اِستراتيجيته مع العدو لبق اللسان فلم يكن سبّاباً ولا طعّاناً ولا نعّالاً ولا شتّاماً، لأنّ المسلم ليس بسبّاب ولا نعّال ولا طعّان، وقد شهد له العدو قبل الصديق في معاملته الحسنة التي تعكس تيمة وطنه من ضبّاط فرنسيّين الذين كانوا أسرى عنده يحرسون على زيارته واللقاء به أثناء إقامته بباريس، وبعد أن أطلق الملك لويس فليب حرّية هؤلاء الأسرى جاؤوا إليه وشكروه على اللطف والإهتمام.[38]

كما تظهر سمة مواطنته في عدم التنكيل والتمثيل بالقتلى، فهذه الصفات لا تليق بالإنسانية فما بالك به شخصية وطنية أوّل من سنّت تبادل الأسرى مع الطرف الفرنسي الذي كان أحياناً متخاذلاً في مواقفه، مراوغاً في قراراته.[39]

خاتمة:

الأمّة الجزائرية من أعظم الأمم التي كسرت قيود الإستبداد وقهرت عطرسة الظلم وغيّرت مجرى التاريخ المعاصر، والتي ضحّت بدمائها وأموالها وفلذّات أكبادها، وقدّمت قوافل الشهداء ودفعت الثمن غالياً، لكن ما وهنت لما أصابها في سبيل الله وما ضعفت وما إستكانت للوصول إلى حريتها وكرامتها لتحقيق العدل بين أبنائها، ولسان حالها بأن الحرية لا توهب ولا تعطى، إنما تنتزع إنتزاعا، وتروي شجرتها الزكية بدماء الشهداء.

إنّ المقاومة الشعبية المنظمة التي قادها الأمير عبد القادر ورفاقه، كانت تمثل إرادة شعب ولذلك لم يكن يعني إضطرارهم إلى التسليم، إستلام تلك الإرادة، بل إستمرت شعلة الكفاح تقدم الشهداء والمقاومين عبر الواحات ورمال الصحراء وقيم الأوراس وجرجرة من خلال مقاومات شعبية آمنت بالوطن والوطنية التي تعلّمتها من رجل الدولة – الأمير عبد القادر– من خلال مقاومته المنظمة والتي دامت أكثر من خمسة عشرة سنة صورت أرقى درجات الوطنية وعبقرية الحرب والسلام.

وبناءً على ما تقدّم يمكننا القول الاستخلاص:

- الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري مؤسّس الدولة الجزائرية الحديثة، بذل جهوداً جبّارة بعبقريته الفذّة في توحيد القبائل المتنافرة، وكوّن منهم دولة حديثة، وقد تطوّرت الوطنية بسرعة نتيجةً لتصرّفات الأمير التي دعمت وكرّست التفكير الوطني الجزائري، فهو صاحب الفضل في إخراج الوطنية من الميدان النظرية التي ناد بها حمدان خوجة في نص البيعة إلى ميدان التطبيق.
- جاء الأمير عبد القادر بتجربة جديدة هي العصر، الذي عاش فيه وليست جديدة في التاريخ عندما رشحه والده للولاية عام 1832م، وكان أمامه عدّة نماذج من حكم المسلمين، كسلطانة وإمامة الإمارة وكان يمكنه أن يقلّد هؤلاء أو حتى الداي حسين المخلوع ولكنّ الأمير رفض أن يكون نموذجه هؤلاء جمعياً، وإنّما إختار نموذجاً جديداً يؤصل به الخلافة الراشدية، ويرجع به إلى حكم الإسلام في عهده الذهبيّ.

- نصب الأمير بإجماع شعبيّ اِستمدّ منه شرعيته، فهو لم ينل هذا المنصب(الأمير)عن طريق الوراثة أو التزكية، أو القوة، ولكن تقلّده على أساس الشورى الديمقراطية التي هي أساس الإيديولوجيا في اِستمالة القبائل نحو الوطن الواحد والدفاع عنه.
- بعد المبايعة الشعبية، حمل الأمير عبد القادر على عاتقه مسؤولية الحكم، وقد اِمتد سلطانه إثر معارك دامية حتى شمل ثلاثة أرباع القطر الجزائري، وبعد أن اِستقام له الأمر شرع في تنظيم أمور الدولة النواة، وتشكيل الكوادر الحكومية، فعيّن الأكفاء من الرجال واعتمد على الفقه الإسلامي أي من القرآن الكريم والسنّة نظاماً لِحُكمه، وبناء الدولة والجهاد لتحرير الوطن من الغزاة المحتلّين .
- وحتى لا تتلاشى هذه الوحدة بين القبائل، قام الأمير عبد القادر صاحب الإيديولوجية الوطنية بمحاربة من شقى و عصا الطاعة وتصدّى للتمرّد، حتى لا تكون فريسة سهلة للاستعمار .
- أظهرت إيديولوجية الأمير أنّه المحارب، والخطيب والدبلوماسي، ورجل الدولة، وتكمن هذه الإيديولوجيا في عظمته العقلية، فراسته وخطبه... كلّها تحمل طابع خاص الجدة والأصالة وكانت مكانته العلمية والدينية من أكبر أعوانه على تأسيس الحكومة، وتلك الخطوات الكبيرة التي قطعها في الإصلاح والتعليم ، فقد فتح المدارس، وبنى الزوايا والمساجد في القرى والمدن، واهتمّ بالتعليم وجمع المخطوطات ، و هذا يكشف لنا إيديولوجيته نحو بناء المجتمع وتطوّره .

الهوامش:

[1] علي محمد محمد الصلابي، **الأمير عبد القادر قائد رباني ومجاهد إسلامي**، ط2، المؤسسة الوطنية للنشر،1983،ص 133

[2] إسماعيل العربي، **المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1982، ص 23.

[3] **نفسه**.

[4] **نفسه.**

[5] **المصدر نفسه**، ص49.

[6] علي محمد الصلابي، **الامير عبد القادر الجزائري وبناء الامة الجزائرية الحديثة**، ط2، دار هومة الجزائر، 1989، ص98

[7] عبد القادر بوطالب، **الأمير عبد القادر الجزائري وبناء الأمة الجزائرية من الأمير عبد القادر إلى حرب التحرير**، منشورات دحلب، الجزائر، 2009، ص53-64.

[8] **نفسه.**

[9] بديعة الحسني الجزائري، **حوار الامير عبد القادر**، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2008م، ص55-56.

[10] علي محمد الصلابي، **الأمير عبد القادر الجزائري وبناء الدولة الجزائرية الحديثة**، مرجع سابق، ص98.

[11] عبد الرحمان بن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الفكر للطباعة النشر والتوزيع، لبنان، 2004، ص209.

[12] **المصدر نفسه**، ص55-56.

[13] بديعة الحسني الجزائري، **الامير عبد القادر حياته وفكره**، ط2، وزارة الثقافة، الجزائر، 8199، ص88.

[14] المصدر نفسه، ص56.

[15] المصدر نفسه، ص90.

[16] مؤسسة الأمير عبد القادر، **الامير عبدالقادر والقيم الانسانية** ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2011، ص35.

[17] إسماعيل العربي، **المقاومة الجزائرية**، تحت لواء الأمير عبد القادر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2 1982، ص80.

[18] عبد الله العروي، **مفهوم الإيديولوجيا**، المركز الثقافي العربي، ط 5، بيروت، لبنان، 1993، ص9.

[19] شبل بدران، **التربية والإيديولوجيا**، دراسة في العلاقات بين التربية وبنية النظام السياسي، مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، القاهرة، 2008، ص36.

[20] **المرجع نفسه**، ص37.

[21] **المرجع نفسه**، ص.38.

[22] **المرجع نفسه**، ص 39.

[23] مفهوم المواطنة لغًة: تُعرف المواطنة (بالإنجليزية (Citizenship :لغةً بأنّها مصطلح مشتق من كلمة الوطن، وهو المكان الذي يُقيم فيه الإنسان سواء وُلد فيه أم لم يولد، والفعل منه (وَطَنَ) بمعنى أقام أو اتّخذ وطناً، والمواطنة مصدر الفعل (واطن) على وزن فاعل ويأتي بمعنى شارك؛ أيّ شارك بالمكان مولداً وإقامة.

مفهوم المواطنة اصطلاحًا: تُعرف المواطنة اصطلاحًا بأنّها علاقة متبادلة بين الأفراد والدولة التي ينتمون إليها ويُقدّمون لها الولاء؛ ليُحصلوا فيما بعد على مجموعة من الحقوق المدنية، والسياسية والاجتماعية، والاقتصادية، وتُعرف المواطنة أيضاً وفقاً لدائرة المعارف البريطانية بأنّها علاقة بين الفرد والدولة يُحدّدها قانون الدولة بما تتضمّنه من حقوق وواجبات.
https://mawdoo3.com

[24] شبل بدران، **مرجع سابق**، ص40

[25] محفوظ قداش، **تاريخ الجزائر(1830–1954م)**، ترجمة محمد المعراجي، منشورات الوكالة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، 2008، ص32–33.

[26] مؤسسة الامير عبدالقادر، **مرجع سابق**، ص185.

[27] أديب حرب، **التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر**، ط 2،دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2004، ص53، 54.

[28] يُطلق اسم الرومان على الشعب الذي سكن الأراضي اللإيطاليّة، واتخذ من مدينة روما مركزاً له لإنشاء إحدى أكبر الإمبراطوريّات التي عرفتها البشرية، وقد ظلّت آثار الرومان باقية في الدول التي كانت تحت سيطرتها إلى يومنا هذا، إلى جانب وجود العديد من بقايا الأنظمة الإداريّة والسياسيّة التي عرفها الرومان واستلهمتها الدساتير الحديثة.

[29] لوَندال هم إحدى القبائل الجرمانية الشرقية وكانوا يدينون بالمسيحية على مذهب الآريوسية، وقد كانوا مضطهدين من قبل الكنيسة المؤمنة بعقيدة الثالوث، فاجتمعوا تحت راية الملك الموحد غايسرك ضد حكم الروم، فشهدت عدة حروب مع الروم في القرن الخامس الميلادي استطاعوا تأسيس دولة في جنوب أوروبا منها فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وشمال

[30] عبد القادر بوطالب، **مرجع سابق**، ص95.

[31] أديب حرب، **التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر**، مرجع سابق، ج2، ص51–52.

[32] مؤسسة الامير عبدالقادر، **مرجع سابق** ، ص 198.

[33] أ.ف.دينيزن، **الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر**، ترجمة أبو العيد دودو، دار هومة، الجزائر ص128.

[34] أديب حرب، **مرجع سابق**، ص53.

[35] ميشال بوتور، بحوث في الرواية التاريخية، ترجمة فريد أنطونيوس، منشورات العويدات، بيروت، لبنان، ط2، 1982 ص18.

[36] **المرجع نفسه**، ص20

[37] هنري تشرشل، **حياة الأمير عبد القادر**، ترجمة أبو القاسم سعد الله، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص269

[38] Boutaleb.(A), L'Amir Abdelkader et la formation de la nation Algérienne, E.D, Alger, 1990.

[39] DINESEN (B) et POULLION (F), Abdelkader le magnanime, I.MA, Paris, 2003.